الموازنة بين المتنبّي والجواهري في الكرامة الإنسانيّة

الدّكتورة سودابه مظفّري*

أستاذة مساعدة بجامعة خوارزمي

(٢٢١ - ٢٥٠)

تاريخ الاستلام: ٩٠/٠٩/٢٠؛ تاريخ القبول: ٩١/٠٦/١٤

الملخص

إنّ الكرامة عنوان الإنسان، خلقه البارئ مكرّما بقوله:(و لقد كرّمنا بني آدمَ وحمَلناهم في البرّ والبَحر ورزَقناهُم من الطّيّباتِ وفضّلناهُم على كثيرٍ ممّن خلَقنا تَفضيلا)(الأسراء/ ٧٠) وبهذا جعله الله أشرف خلقه. كثير من الآيات القرآنيّة والأحاديث الواردة تؤكّد على الكرامة الفطريّة ولزوم الدّفاع عنها. فلابدّ للإنسان أن يدافع عن هذه الدرّة الثمينة المودّعة في وجوده ويصونها من اعتداء اللّئام عليها وإن ينته إلى العسر في الحياة الدّنيويّة أو الهلاك.

إنّ الاحتفاظ بالعزّة والكرامة الإنسانيّة له صدى في الأدب العربيّ منذ الجاهليّة حتّى الآن؛ ومن حيث إنّ للشعر تأثيرا أقوى وأعمق، فهذا العنوان في الأشعار العربيّة أكثر تلونا. فمن بين الشعراء العرب هناك شاعران يهتمّان كثيرا بالكرامة الإنسانيّة حتى اصطبغت معظم أبياتهما بهذه الصّبغة الإلهيّة، يصوّرانها بأروع صور فى أشعارهما كأنّهما يناديان في كلّ لفظة بهذه الجوهرة الإنسانيّة والاحتفاظ بها؛ ألا وهما المتنبّيان: المتنبّى العبّاسيّ (أبو الطّيّب) والمتنبّيّ المعاصر(محمّد مهدىّ الجواهرىّ).

الكلمات الدليليّة: الكرامة ،المتنبّي، الجواهريّ، المقارنة، التمرّد، الغربة، الفخر ،العتاب

* E-mail: mozaffari_arabic@yahoo.com

المقدّمة

كان للجواهري في حياته نموذج بارز ومثال حقيقيّ، ألا وهو المتنبّي الذّي كان يحفظ ديوانه وهو صبيّ يلعب في الأزقّة، والّذي تأثر الجواهريّ بشخصيّته وجبروته وعظمة اللّفظة عنده؛ يقول الشّاعر المعاصر الفقيد محمود درويش: «الجواهريّ شاعر عبّاسيّ يحيا في القرن العشرين» (خيال الجواهري، الجواهري وسيمفونية الرحيل، ٢٠٠٤م: ٤٦) فلاغرو أن يُطلَق عليه "متنبّى العصر". *(المصدر نفسه: ٦٢)* ولهذا يقول الشّاعر المعاصر بدر شاكر السيّاب: «لا متنبّي بعد المتنبّي إلاّ الجواهريّ.» (خيال الجواهري، الجواهري ... مسيرة قرن، ٢٠٠٤م: ٣٩٢) هل كان بين الشّاعرين تقارب أو بينهما عناصر مشتركة، كما يعبّر الجواهري نفسه عن بعض المشتركات بينه وبين المتنبّي بقوله: «حتى المتنبّي كابد ما كابدت، وتحمّل ما تحمّلت، وتهجّر ما تهجّرت، ويشرّد بما شرّدت....» (المصدر *نفسه*: ١٢٨) نعم كان البعد الزّماني بينهما ثلاثة عشر قرناً، ولكن هذا لم يكن سبباً للتّباعد والانفصال المطلق بينهما؛ بل كانت عناصر التّشابه والتّقارب بين الشّاعرين تتلخّص في المحاور التالية:

الأوّل: إنّ كليهما من بلدة واحدة بُعد خمسة أميال فقط. فمولد المتنبّي هو الكوفة، والجواهري من النجف. مولدهما في موقع بين الطّبيعتين المتعارضتين هما صحراء نجد وبساتين الفرات.

الثّاني: نشأ الشّاعران في الفقر الّذي يعتبر رذيلة عندهما؛ كما كان والد المتنبّي سقّاء في الكوفة، و وصل الأمر بأهل بيت الجواهري إلى أن قال: «وصل الأمر بنا أن نبيع أثاث بيتنا تباعاً... وبقينا على الحصيرة كما كنّا قبل ذلك.» (المصدر *نفسه: ١٥٩*)

الثّالث: كلاهما عانيا من الغربة ـ بنوعيها الدّاخليّة والخارجيّة ـ بسبب اعتقادهما. فالمتنبّي تغرّب باعتقاداته القرمطيّة، والجواهري عاش أعظم حياته غريباً بموقفه الخاصّ من طبقة الحكّام واعتقاداته السياسيّه والاجتماعيّه.

الرّابع: إنّهما عملا فترة من حياتهما في البلاط واشتركا في السّلطة من خلال الحاكم. إنّ المتنبّي بقي مدّة من عمره مع سيف الدّولة (أمير حلب) ولم ينفصل منه و إن كان في المواقع الشّديدة والحروب العديدة. كما عاش الجواهري مرحلة من عمره عند الملك الفيصل. وكان لهذا الحضور أثر كبير في حياتهما الأدبيّة.

الخامس: من المشتركات بين الشّاعرين كثرة الأسفار؛ كان بعضها باختيار و بعض آخر اضطراراً.

السّادس: والميزة المشتركة التي امتازت بها أشعار الشاعرين هى تأثير البيئة العامّة في أشعارهما، و هى كالمرآة تنعكس عليها أحوال الناس في عصريهما؛ هذا فضلا عمّا يظهر من خلال أشعارهما من تأثير البيئة الخاصّة بالإضافة إلى صورة نفسهما القلقة، و مزاجهما الحادّ، و أخلاقهما الصارمة، و تطلّعهما إلى العلى، و روحهما المتمرّدة والرّافضة، و صراحتهما العديمة النظير.

و أخيراً علينا أن نشير إلى أنّ الجواهري يعدّ هذا الأمر تكرارا للتّاريخ بقوله: «ويا للعجب، فكم من مرّة يعيد التّاريخ نفسه، فلقد مثل المتنبّي العظيم وأنا في موقفي هذا.» (محمد مهدى الجواهرى مذكّراتي ، ١٩٩٩م: ٢٧١/١)

ألا تكفي هذه العناصر المشتركة للدّلالة على التّشابه والتّقارب بين شاعرين أحدهما عبّاسيّ، والآخر معاصر؛ كأنّهما يعيشان في عصر واحد؟

و من الوجوه المشتركة بين الشاعرين والجديرة بالذكر هوالدّفاع عن كرامة الإنسان. هذا الأمرالّذي يؤكّد الشّاعران عليه من خلال أشعارهما كثيراً ويهتمّان به أكثر من كلّ شيء آخر في حياتهما؛ و هذا هو ما سنستعرضه في هذا البحث.

نبذة عن حياة المتنبّى

ولد أحمد بن الحسين الملقّب بأبي الطّيّب والمعروف بالمتنبّي في أوائل القرن الرّابع الهجريّ/ العاشر الميلاديّ فى الكوفة أو المنطقة المحيطة بها. يبدو أنّ شاعرنا لم يعرف أمّه فربّته جدّته لأمّه وغرست فى قلبه الحنان. كانت السّنون الأولى من حياته سنى طفل فقير ينعم بالدّلال ولكنّه أخذ يتميّز من رفاقه ذكاءً وميلاً للدّرس. تعلّم أبوالطّيّب في المدرسة القراءة

والكتابة، وكان اهتمامه موجّهاً نحو الأدب، وكانت الكوفة آنذاك مركز ثقافة نشيطة؛ فأفاد الشاعر من جميع الفرص السّانحة للتّعلّم. فقد ظهرت موهبة الشّعر عنده في سنّ مبكرّة. كانت آثار الشّعراء الجاهليّين والأمويّين أساس مطالعات أبى الطّيّب كما اتّجهت ميوله إلى أكبر مدّاحين عرفهما العصر السّابق: أبى تمّام وتلميذه البحتريّ.

وقعت الكوفة بعد هجوم القرامطة إليها في الإنحطاط المتسارع، فعزم الشّاعر وأبوه على الذّهاب إلى بغداد في الرّابعة عشرة من عمره، وأخذ يسافر إلى الأراضى العديدة، ولاسيّما بعد موت أبيه عضّت به الحاجة فراح يتردّد فى حواضر الشّام، كما سافر إلى طرابلس واللّاذقيّة و.... ومدح طوال أسفاره بعض الأمراء والسّادات. وقد اتّصل ببعض الأمراء وحظى عندهم، فمن أشهرهم سيف الدّولة الحمدانيّ بحلب وكافور بمصر، ولكنّه لم يسلم من أعداء يكيدونه فتركهما الشّاعر و رجع إلى الكوفة. ثمّ شخص إلى شيراز بدعوة من عضدالدّولة بن بويه، صاحب فارس، وعند الرّجوع من شيراز أغتيل بيد بعض خصومه و قتل في ٢٨ رمضان سنة ٣٥٤هـ.ق.

نبذة عن حياة الجواهريّ

ولد الشّاعر العراقيّ المعاصر محمّد مهدي الجواهرى عام ١٩٠٠ للميلاد ـ على القول الأرجح ـ في النّجف الأشرف، وهو مركز دينيّ و أدبيّ. إنّ شاعرنا تحدّر عن أسرة عريقة في العلم والأدب والشّعر؛ جدّه المكرّم هو الشّيخ محمّد حسن صاحب كتاب "جواهر الكلام"، من تلاميذ الشّيخ جعفر كاشف الغطاء، وأبوه الفاضل عبدالحسين اجتاز مكانة مرموقة في الفقه وأصول الدّين. ترعرع الجواهريّ تحت رعاية أبيه الخاصّة، فتفرّس أبوه فيه نباهة متميّزة وذاكرة متوقّدة على الحفظ منذ البداية واجتهد أن يصنع من ابنه رجلاً يسير مسير جدّه فيرجع على يده مجد العائلة الجواهريّة. درس الجواهريّ على عدد من شيوخ عصره وأخذ عنهم النّحو والصّرف والبلاغة والفقه وغيرها من العلوم.

أخذ الجواهري ينظم الشّعر في سنّ مبكّرة متأثّراً ببيئته الأدبيّة والشّعريّة، فتبوّأ مكاناً خاصّاً بين شيوخ القريض في بلدته. لم يبق من شعره الأوّل شيء مذكور، ولكن نشر أوّل قصيدته عام ١٩٢١م في المجلاّت والجرائد. قام بالتّدريس والعمل بدائرة التّشريفات في البلاط الملكيّ مدّة من عمره بعد تركه النّجف، ولكنّه استقال كلّ مرّة من وظيفته. سافر الجواهريّ إلى إيران مرّتين في ١٩٢٤ و١٩٢٦م. فنظم في ذلک عدّة مقطوعات متأثّرا بطبيعتها الفتّانة.

لم يجوّد الجواهرىّ نفسه في الشّعر والأدب فحسب، بل إنّه اشترک في كثير من المواقف الاجتماعيّة والسياسيّة الخطيرة مندّدا سياسة الحكّام وتدخّل الاستعمار البريطانيّ، ذائدا عن حقوق الشّعب المهضومة، ودفع خسائر باهظة في حياته ماديّة كانت أو معنويّة، كما أقام في براغ سبع سنوات مضطرّا. إنّه اشترک في كثير من المحافل الأدبيّة وقد رأّس بعض الوفود العراقيّة في المؤتمرات الأدبيّة. أمضى شاعرنا سنواته الأخيرة من عمره في دمشق، وصدرت أعماله الكاملة في مجلّدات وأنجزت طباعة مذكّراته في مجلّدين في العاصمة السّورية. توفّي الجواهريّ بدمشق عام ١٩٩٧م.و دفن في مقبرة السّيدة زينب(سلام الله عليها).

الكرامة والشّاعران

يعتبرها المتنبّي حياة الإنسان كلّها ويعتقد أنّ غثاثة حياة الإنسان في غثاثة كرامته، وهتف بها قائلا:

غثاثة عيشي أن تغِثّ كرامتي وليس بغثّ أن تغِثّ المآكلُ

(المتنبى، ٢٠٠٨م: ج٣، ١٨٨)

والمتنبّي هو الّذي لا يمدح إلاّ من يحفظ كرامته ولا يهضم حقّه من العزّة الإنسانيّة؛ كما نرى كثيراً من مدائحه لأمير حلب سيف الدّولة، لأنّه قام باحتفاظ الكرامة والعزّة للشّاعر، ولم يمنح الفرصة للحسّاد والواشين ضدّ أبي الطّيّب. وعندما يطلب الشّاعر من الأمير ألاّيكلّفه بتقبيل الأرض أمامه، لم يخضع سيف الدّولة قبال إرادته فحسب، بل أفاض عليه النّعمات والهبات الوافرة. و من جانب آخر نرى أنّه ترك الشّاعر العبّاسي أمير حلب بعدما اجتمـــع عليه

حسّاده وخصومه عند الأمير، حتى إذا ضرب ابن خالويه وجه الشّاعر ولم يقم الأمير بانتصاره قولاً ولا عملاً، غضب أبوالطّيّب فأمّ دمشق بعد ترك حلب (البستانى،١٩٨٩: ج٢، ٣١٩)، وعندما دخل الكوفة أرسل سيف الدّولة إليه كتاباً بخطّ يده سائلاً المسير إليه بحلب (المصدر *نفسه*: ٣٢٢) فأجابه الشّاعر بقصيدة مطلعها:

فهمتُ الكتاب أبرّ الكُتب فسمعاً لأمر أمير العرب

(المصدر نفسه: ٣١٩)

إنّه لم يهن بالأمير قولاً لما حفظ الأمير كرامته في السّابق، ولكنّه من جانب آخر لم يخضع تماماً لإرادته بأن يسير إليه بحلب، بعدما رأى ذلك الجفاف منه عند خصومه؛ ولم تأذن له كرامة نفسه أن يرجع إليه مرّة أخرى. ألم يكن هذا دليلاً قويّاً على اهتمام الشّاعر بعزّة نفسه في كلّ حال؟.

وعندما شعر شعوراً قويّاً بإهانة كرامته في مصر بعدما ماطله كافور في وعوده، أصبح كأنّه جريح لايستطيع أن يقبض على السّيف ولا أن يبطش به ولا يملك إلاّ أن يئنّ أنين العاجز. عندما يريد الأمير المصري أن يمدحه قام بمدحه في الظّاهر، ولكنّه لم يتنــزّل من كرامته بهذا المدح. فإذا كان محبّاً يجتهد أن يكون إزاء حبّه محبوباً؛ يقول في بائيّته مخاطباً أمير مصر:

أنت الحبيبُ ولكنّي أعوذ به مِن أن أكونَ محبّاً غيرَ محبوب

(المصدر نفسه: ج١، ١٨٦)

وهذا هو الجواهري الّذي يقول عن الكرامة: «أيّ تعب أشدّ من تعب الكرامة.» (الجواهرى، مذكّراتي١، ١٩٩٩م: ٢٧٧) وهو شاعر يصبر على كلّ معاناة وضيم في حياته ولكنّه لا يصبر على كرامته ومساسها واللّطمة عليها. كما أنّ مساس الكرامة عنده أشدّ من أيّ أمر آخر. إنّه يذود عن هذه الخصيصة الإنسانيّة في أشعاره مراراً، ويدعو النّاس إلى حفظها وإعزازها طوال الحياة، فيقول: «في داخلي كثير من العناصر المتفجّرة، اعتزازي بكرامتي، الثّقة بالنّفس

الّتي تصل إلى الغرور أحياناً، كلّ هذه دمّرت جزءاً من حياتي...» (شعبان ،١٩٩٧م: ٧. اليحى، ٢٠٠٠م: ١١٥)

هذا الشّاعر المعاصر يحبّ الملك الفيصل الأوّل ويمدحه في أبيات، لا لشيء إلاّ لأنّه قام بتجديد كرامته الّتي افتقدت عنده في الطفولة والصّباوة بانتخابه موظّفا في ديوان وزارة المعارف، فيصف ما يختلج في نفسه أمام هذا العمل العظيم، وهذا الرّجل الّذي استردّ كرامته بقوله: «ففي تلك السّاعة أحسست أنّ الأرض تهتزّ تحتي فرحاً، لا حبّاً بمال وجاه أو بمنصب؛ بل شعوراً بالكرامة. ها هو الرّجل الّذي كان صاحب اليد الأولي في استرداد كرامتي الّتي أرادت الذّئاب تجريحها". (الجواهرى، مذكّراتي١، ١٩٩٩م: ١٨٥)

الكرامة ذاتيّة الإنسان

إنّ الكرامة ذاتيّة عند كلّ إنسان، فهي موهبة إلهيّة إليه لا تكون اكتسابية. إنّ المتنبّي يؤكّد على هذا الواقع بقوله: «أفعال من تلد الكرام كريمة» (المتنبى: ٢٠٠٨: ج٤، ١٣٢) فهو يقول: من كرُمت مناسبُه كرُمت أفعاله. كما أنّه على أنّ الهوان والخفّة ذاتيّ. إن كان الإنسان ذليلاً في نفسه يقبل المذلّة والمهانة بسهولة ولا يتألّم بتحقيره من الآخرين، ولاسيّما الأراذل واللّئام منهم. فهو كميّتٍ لا شعورَ له كما لا يحسّ أيّ ألم و وجع بجسمه. فيقول:

مَن يهُن يسهل الهوانُ عليه ما لجـــرحٍ بميّت إيلامُ

(المصدر نفسه: ج٤، ٩٥)

إنّ المتنبّي لايخصّ العزّ بالإنسان، بل يعتقد عسى أن تنبت أرض عزّة وشرافة، فهذه الأرض أطيب من كلّ الأقاليم والأراضي.

و كلّ امرئ يُولي الجميلَ محبّب وكلّ مكان يُنبت العزّ طيّب

(المصدر نفسه: ج١، ١٩٣)

ربّما يريد الشّاعر بالأرض أرض وجود الإنسان الّذي كانت فيه للكرامة جذور عميقة وبذور قديمة تنشأ منه كرامات.

لم يكتف أبو الطّيّب بكرامة نفسه فحسب، بل كان شديد الغيرة بأشعاره؛ كما إذا اجتمع الحسّاد عليه عند سيف الدّولة لينغصّوا عيشه، حذّر الشّاعر سيف الدّولة بقوله:

أذا الجود أعطِ النّاس ما أنت مالك ولاتُعطِيــنّ النّاسَ ما أنا قائل

(المصدر نفسه: ج٣، ١٢٥)

فالشّاعر ينهي الأمير أن لا يهدي النّاس من أشعاره الثّمينة، بل يحفظها لكرامة يؤمن بها لهذه الكلمات والأبيات.

أكثر أبيات محمّد مهدي الجواهري مصبوغة بصبغة العزّة والكرامة يعتبرها ذاتيّة أصيلة ضاربة جذورها في أعماق وجود الإنسان:

أمّي غذّتـني المُلهَـبـا ت وضرعُهـا حفل لَبون
و أبي تخـلّف أن يَجـو ع ولا يذلّ، ولا يهون
و درجتُ درَبهما وطــا لت بي على الدّرب السّنـون

(الجواهري، الديوان، ١٩٨٠م: ج٧، ٢٤٩)

والد الجواهري كان كريم النّفس، ما عمل حتّي في شدّة فقر العائلة بجمع الصّدقات وقبول التّبرّعات، هذاالعمل الّذي كان من عادة سائرعلماء الدّين آنذاك. يرضي لفقره وعدم تطاول اليدين أمام الآخرين وعدم الحرص بما لايكون له. كما يقال الشّاعر عن سجاياه: «هو... ما شئت من غزارة فضل وعلم وكرم وحلم وسجاحة أخلاق وطيب أعراق وعزّة نفس وعلوّ همّة و...» (الجواهري، مقدّمة ديوان، ١٩٨٠م: ج،١، ٣١)

الكرامة في النّضال على الظّلم

إنّ المتنبّي مذ عرف نفسه يتمرّد بلسانه وقلمه، وقدمه على كلّ جور واستكبار في المجتمع الإنساني، ولايصبر على الظّالمين والمستكبرين. لايكون هذا إلاّ أثرا واضحا من اهتمامه بكرامة وجود الإنسان ونضاله ضدّ أرباب الجور. وحضورُه في المعركة بين الحقّ والباطل ينشأ

من هذا الشّعور القويّ؛ كما يفضّل المجاهدة بالقدم والإقدام على النّضال قلما ولسانا وهذا حقيقة المجد، فيقول:

حتّى رجعتُ وأقلامي قوائلُ لي المجدُ للسّيف ليسَ المجدُ للقلم

(المتنبّی، الديوان، ٢٠٠٨م: ج٤، ١٦١)

هو الّذي يؤمن بأنّ الّذي لاينهض على الظّلمة لايليق بالمجد والكرامة. يخاطب نفسه:

إن لم أذركِ على الأرماح سائلة فلادُعيتُ ابنَ أمّ المجد والكرم

(المصدر *نفسه: ج٤، ٤٤*)

فالشّاعر يري العزّة في النّضال المستمرّ ضدّ كلّ ظلم دون أن يحدّ في مكان أو زمان خاصّ. و يؤكّد على هذا في بيت آخر:

فاطلب العزّ في لَظى وذرِ الذّ لّ ولو كان في جنان الخلُود

(المصدر *نفسه: ج١، ٣٢٧*)

إنّه يفضّل المجد والشّرف عند المصاعب و في بحبوحة اشتعال نيران المرارات ويرجّح إقبال الحوادث على المذلّة حين التّرف والتّنعّم.

كما يعدّ الشّاعر العزّة في عداد الآلات الحربية ويجمع بينهما في مكان واحد. لايكون أيّ شرف مجرّداً عن النّضال منفصلاً عن المعارك:

وإذا المكارمُ والصّوارمُ والقنا وبناتُ أعوجَ كلّ شيء يجمع

(المصدر *نفسه: ج٢، ٢٧٧*)

إنّ الكرامة من أنفس الشّيم المودّعة عند الإنسان. فكما يحارب الإنسان لحفظ كلّ نفيس له لايريد أن يقع في أيدي المتجاوزين، فالأهمّ من ذلك المناضلة لإبقاء المكرمة الإلهيّة العديمة النظير التي خُلِق لها.

فالمتنبّي كان كذلك، فهو لايجمع بين التّرف واللّهو وبين المجد والكرامة؛ بل يؤكّد على حقيقة المجد الّتي تبدو عند مواجهة الإنسان لأعباء الحياة، وحضوره في ساحة المحاربة ضدّ كلّ ما يتناقض مع الإنسانيّة والكمال المطلوب الإلهيّ، فيقول:

ولاتحسبنّ المجدَ زقّاً وقينة　　فما المجدُ إلاّ السّيفُ والفتكة البِكر

(المصدر *نفسه: ١٤٦*)

هذا لايعني أنّ المجد يناقض الرّاحة والأمن؛ بل بديهيّ أنّ كلّ إنسان يحبّ الرّاحة واللّذة، وحياته ممزوجة من الأفراح والأتراح، لاتنحصر بالهموم والأحزان والنّوائب. كلّ ما خلق الله لتمتّع الخلق في الدّارين؛ وهذا حقّ مشروع لكلّ المخلوقات. ولكن عندما يكون الإنسان مهضوم الحق مسلوب الكرامة لايليق به الطّرب والانحياد قبال الظّلم والإغارة، والّذي يقتحم المعارك ليُحقّ حقّ الإنسان و يطلب الوصول إلى العزّة والشّرف، لايريد إلاّ تعبيد الطّريق لراحة الإنسان وأمنه المطلوب.

عِش عزيزاً أو مُت وأنت كريم　　بينَ طعنِ القنا وخَفق البنود

(المصدر *نفسه: ج١، ٣٢٦*)

يرسم المتنبّي أمام الإنسان الممجّد والمكرّم طريقين:

إمّا يعيش عيشاً عزيزاً حافظا لشرفه ودافعاً عن كرامته. وإن لم يكن السبيل معبّداً للحياة الماجدة السّامية، فلابدّ له أن يقوم بتمهيد هذا الطّريق وتيسير الأمكانيات بكلّ وجه. وإن كان مسلوب الحق فعليه المجاهدة ضدّ المغيرين وإن يُؤدِّ هذا الأمر إلى موته، فلايموت إلاّ كريماً شريفاً. كما يشير إلى هذا في بيت آخر:

و إلاّ تمُت تحت السّيوف مكرّما　　تمُت وتُقاسِ الذّلّ غيرَ مكرّم

(المصدر نفسه: *ج٤، ١٢٧*)

إنّ الإنسان إذا لم يحتفظ بعزّته في الحياة، ولم ينهض لاكتساب مجده المسلوب، ولم يجنح إلى الموت في سبيل أخذ كرامته، لاسبيل له إلاّ أن يعيش ذليلاً يعاني هواناً وخضوعاً أمام الظّلمة واللّئام؛ وحينئذٍ لايطلق على مثل هذا العيشِ حياةً بل هو الموت بعينه. كما أنّ الموت في سبيل الكرامة فهو الحياة الباقية:

فموتي في الوَغى عيشي لأنّي　　رأيت العيشَ في إرَب النّفوس

(المصدر *نفسه: ج٢، ١٩٢*)

فالمتنبي يؤمن بأنّ شرافة الإنسان مازالت مهدّدة بالسلب والأذى، ولايسلم مجد إنسان من خطر يهدّده إلاّ بقيامه ضدّ المتعرّضين شجاعاً مقتدراً وبكلّ قواه، وألاّ يخاف من الموت في سبيل إحياء الكرامة:

لايسلمُ الشّرف الرّفيع مِن الأذى حتّى يُراق على جوانبه الدّمُ

(المصدر نفسه: ج٤، ١٢٦)

وأمّا الحال فكيف تكون بالنّسبة للجواهري صنو المتنبّي؟ هل هذا الشّاعر المعاصر أيضا يعتقد بأنّ للكرامة الأنسانيّة قيمة ينبغي للإنسان أن يناضل لأجلها و يقضي حياته في المعارك؟

نعم، إنّ الجواهري يهتمّ بهذه الميزة الإنسانيّة كثيرا، بل يحسبها من العناصر المؤثّرة في إصالة الإنسان، ويجب الدّفاع عنها بكلّ ما له من النعمات والرّفاهيّات في الدّنيا. إنّه يسهم بقلمه وشعره في حركات النّضال والتّحرّر في العراق وسائر الدّول العربيّة، ويدافع عن العزّة والكرامة الذّاتيّة، بل لايكتفي بالقول دون العمل في هذا المستوى، فنراه كثيراً ما يعاني من التّعسّفات والخصومات المختلفة الّتي يمهّدها الحسّاد والأعداء في حياته.

فهو شاعر ملتزم لايقبل المذلّة والهوان في أيّ صورة من صورها المتلوّنة، ويواجه كلّ الخطوب في سبيل الوصول إلى الحريّة وحفظ المجد والشّرافة الإنسانيّة:

يُطاق تقلّبُ الأيّام فينا و أمّا أن نَذلّ فلايُطاق

(الجواهرى، الديوان ١٩٨٠م: ج١، ٣٤٣)

فلايرضى بالذّلّ ولايبيت على الضّيم العزيزُ الأبيّ، ولو كان الأمر غير ذلك لهانَ احتمالُ المذلّة والخفّة والصّبر عليها، أمّا المذلّة فلايرضخ لها إلاّ الخاضعُ الوضيع.

فكما عرّف المتنبّي المجد في الاعتداد بالشجاعة في ساحة القتال، وأنّه لا فاصلَ بين المجد والنضال، فالجواهري يعتبر المجد صنوا للاقتحام في المعركة و مايتبعها من المصاعب والعقبات، فينشد:

ما المجـد كأسٌ تجتليـــ ـــها للسّقاة يدُ المدير

المجـــد يخنَـــق بين أو تارٍ و وِلدانٍ وحور
...المجد ليس رضا الوزيـ ـــر ولا مصاقبة السّفــير
المجـد صنــوٌ للدّمـا ءِ و للسّجون وللقبـور

(المصدر نفسه: ج۴، ۶۶)

هو لايخوض القتال فيضرب أعناق الملوک بالسّيف كسلفه أبي الطّيّب، ولكن لايكون بمعزل عمّا يجري في المجتمع الإنساني من المناضلات. لذا يصف المجد كما يصفه المتنبّي. ويصوّر لنا تأثير المناضلة ضدّ الظلم والاستعباد للوصول إلى المكرمة والعزّة المتعالية بوضوح في قصيدة" أخي جعفر"؛ فيقول:

تقحّـــــم، لُعِنتَ أزيز الرّصاص وجرّب مِن الحظّ ما يُقسَمُ
و خُضها كما خاضَها الأسبقون وثنِّ بمــــا افتتـحَ الأقـــدمُ
فإمّا إلى حيثُ تبـــدو الحيـاة لعِينَيک مَكــرمة تُغنَـــمُ
و إمّا إلى جَدَث لم يكن لِيفضُـــلَه بيتُـک المُظلِـــمُ

(المصدر *نفسه: ج۳، ۲۶۰*)

إنّ الشاعر يحضّ الإنسان الحرّ الشريف إلى الخوض في المعارک، التي تنتهي إمّا بالوصول إلى الحياة الكريمة المطلوبة وإمّا بالموت في سبيل الهدف المقدّس، الّذي هو أفضل من الحياة المظلمة المقيّدة.

تفضيل الموت والهلاك على قبول الهوان

كلا الشّاعرين يعبّران عن تفضيل الهلاك على المذلّة، ويستقبلان الموت بعزّة وشرف، ويصرّحان بنفورهما من الحياة الذليلة الحافلة بالمهانة. يقول المتنبّي:

غير أنّ الفتى يُلاقي المنايا كالحاتٍ ولا يلاقي الهَوانا

(المتنبي، ۲۰۰۸م: ج۴، ۲۴۴)

إنّ الموت أمرٌ كريه في تصوّر الإنسان، وربّما يرجّح بعضُ النّاس عيشَ المذلّة على لقاء الموت؛ وهذا لايكون إلاّ لكراهته الرحيل من الحياة الدّنيوية. ولكنّ الّذي لايفكّر إلاّ بالعزّة وحفظ كرامته الذّاتية فلايخاف من الموت ولايكرهه، بل يفضّل الهلاك الكريه على الحياة الّتي تخلو من أنفَس المودّعات الإلهيّة عنده، ويترك الخوف من الموت للمطيعين لكلّ رذيلة والخاضعين أمام كَلّ لئيم، كأنّهم شياه وأنعام.

رِدي حياضَ الرّدى يا نفسُ واتَّرِكِي حياضَ خوف الرّدى للشّاء والنّعم

(المصدر *نفسه: ۴۴*)

وهذه النظرة خيّمت كذلك على أكثر أشعار محمّد مهدي الجواهري، لأنّه شديد الاهتمام بكرامة الإنسان ويرى أنّه لاجدوى في حياة يحياها المرء مقموع الإرادة مستلبَ الكرامة، يُملي عليه الآخرون ما يريدون فيطيعهم؛ فالموت إذن إليه أحمد وألذّ.

أنا ذا أطلبُ الحِمامَ بنفس لم أخُنها وعزمةً لم تخُنّي

لا لشيئ إلاّ لأنّ المَنـــايا في مصكٍّ الرّجال أعرض

(الجواهرى، الديوان، ١٩٨٠م: ٢٣٤/٥)

فعدم خيانة الشّاعرِ نفسَه هو احتفاظ كرامتها وارتفاع عزّتها، وعدم الخضوع أمام كلّ جبّار عنيد، يريد كلّ شيء لنفسه ولأقربائه وإن كان بسلب الإرادة عن الآخرين وكبت شرافتهم، هو العزّ الحقيقي والشرف المطلوب.

فالرّجل عند الجواهري عنوان لايليق بكلّ امرئ، بل هو الّذي يعني بشيمه الإنسانيّة ويؤمن بكرامة الإنسان الّتي أعطاه الله ليعيش عزيزاً غيرَ منخفض الجناح إلاّ له:

هيَ النّفسُ تأبى أن تذلّ وتقهَـــرا تري الموتَ من صبرٍ على الضّيم أيسرا

(*المصدر نفسه: ۲۷۱/۴*)

هذه النّفس هي النّفس الكريمة الإلهيّة الّتي لاتقبل الذّلّ والقهر، ولاتصبر على الظّلم والعدوان، بل الموت عندها أهون من الحياة الذّليلة والسّكوت أمام الجبابرة.

النتائج المترتّبة على الاهتمام بالكرامة الذّاتية

إنّ العناية بالشّرافه والعزّة الإنسانية عند الشّاعرين متضمنة آثارا ونتائج ملحوظة أهمّها هي:

أ) التّمرّد والرّفض

تزامن ميلاد الشّاعرين مع أحداث جسيمة في جوانب مختلفة من المجتمع الإنساني. إنّهما ترعرعا في بيئة حافلة بالاضطرابات المتصلة والفساد الشّائع: اجتماعيّا، وسياسيّا، واقتصاديّاً ودينيّا. كان الدّم يصبغ هذه البيئة من حين إلى حين آخر؛ كما يصبغها النّهب والسّلب واستباحة الأعراض والاستخفاف بقوانين الخلق والدّين. فما الحال بالنّسبة لشاعر مرهف الحسّ، رقيق المزاج، حادّ الشّعور، ملتهب العاطفة، قويّ الخيال و ذكيّ القلب عند ما يواجه عصراً بهذه الاضطرابات المختلطة إلاّ التّمرّد والرّفض؟. يقول طه حسين في المتنبّي:

«إنّ فتانا قد عرف السّخط منذ عرف نفسه، واستطاع أن يفكّر في أمره شيئاً.» (طه حسين، ۱۹۸۸م: ج۳، ۸۹)

التقى الشّاعران بوقائع مختلفة ـ أكثرها مشتركة ـ مثيرة للتمرّد والاعتراض طوال حياتهما، وعلى رأسها الشّك في نسبهما. بالنسبة للمتنبّي نرى بعض النّاس أثار الشّك حول أبيه وأصالته وعربيّته. وهذا لم يكن إلاّ لأنّ أبا الطّيّب لم يقل في أبيه شيئا في ديوانه: من مدحه أو الفخر به أو رثائه. وهناك مَن زعم أنّ أباه كان سقّاء في الكوفة ليَضع بذلك من شأن الشّاعر، كما أشار إلى هذا أحد الشعراء حين هَجاه بقوله:

أيّ فضلٍ لشاعرٍ يطلبُ الفضل ... من النّاس بكرةً وعشيّا
عاش حيناً يبيعُ في الكوفةِ الماء ... وحيناً يبيعُ ماءَ المحيّا

(المصدر نفسه: الهامش/ ۲۰)

فالمتنبّي يجيب هؤلاء المشكّكين والشّامتين في نسبه وأصالته بأبيات من أروع أشعاره، فيقول في نسبه و والده:

أنا ابنُ مَن بعضُه يفوق أبا البا ... حث والنّجلُ بعض مَن نَجَلَه
و إنّما يَذكر الجدودَ لهم ... مَن نفروه وأنفدوا حِيَلَه

(المتنبي/ديوان ٢٠٠٨، ٢٨٣/٣)

هذا و بالنّسبة للشّاعر المعاصر الجواهري فقبل أن تُغرَس بذرة التمرّد في أرض وجوده منذ الطّفولة، كان طفلاً في زيّ شيخ وقور يعتمر العمامة، ويلبس الجبّة، ويتحدّث بلغة الشيوخ بإرادة أبيه و رغم إرادة الشاعر نفسه؛ فأدّى هذا الأكراه إلى رفضه الدّاخليّ، كأنّه أصبح حرّاً، وانفتحت أبواب الحياة الحرّة أمامه بوفاة والده. كما كان من دوافع التّمرّد والرّفض عنده الفتنة الكبرى الّـتي أثارها المدير السّنيّ (ساطع الحصري) في المدرسة العراقية الّتي عُيّن شاعرنا فيها معلّماً ـ بعد وصف الشّاعر مصايفَ الشميرانات بعاصمة إيران ـ فقد نسبه الحصري بأصالته الإيرانيّة واتّهمه بالشّعوبيّة. يجيبه الجواهري أحسن إجابة فيقول:

«إنّني فخورٌ بحبّي لكلّ الشّعوب... لقد غنّيتُ مصايفَ لبنان وسوريا وفلسطين، وامتدحت في شعري باريس وسواستبول وستالينغراد وبراغ،... أ فهذه شعوبيّة؟» (الجواهري، *مذكّراتي*، ١٩٩٩م: ج١، ١٦٣) كما أثار الخصومة ضدّه حينما حيّ الشّاعرُ الوزيرَ الشّيعيّ لديوان المعارف (عبدالمهدي المنتفكي) بقصيدةٍ مطلعها:

حيِّ الوزير وحيِّ العلمَ و الأدبا وحيِّ مَن أنصفَ التأريخ والكتبا

(الجواهرى، الديوان، ١٩٨٠م: ج١، ٣٩١)

يقول عنها الجواهري: «لم يخطر ببالي قطّ، أنّها ستكون الوثيقة الأولى بيد "ساطع" و مدخلاً قويّا لمعركة جديدة ينتصر بها، وأن أكون أنا بالذّات في هذه المعركة المفتعلة، الضّحيّة الحارّة بل كبش الفداء.» (الجواهرى، *مذكّراتي*، ١٩٩٩م: ج١، ١٣٩)

و امّا في المستوى الاجتماعيّ والسّياسيّ فدوافع كثيرة لسخط الشاعرين وتمرّدهما على الظروف الحاكمة نكتفى بالإشارة إلى نماذج منها.

أثناء إقامة أبي الطّيّب في بغداد يرى ما يرى من مظاهر التّرف وأنواع النّعيم والعبث واللّهو، فيسخط على النّظام الاجتماعيّ والسّياسيّ، ويتمرّد على السّلطان والنّظام والأغنياء وإسرافهم

في استغلال الثّروة العامّة المكبوتة من جانب، و يرفض سكوت العامّة واستكانتهم أمام هذا الظّلم الفاحش من جانب آخر. فلاعجبَ منه أن يظهر سخطه بأبيات، منها:

ودهرٌ ناسُه ناسٌ صغـــار   وإن كانت لهم جُثث ضِخام
وما أنا منهم بالعيش فيهم   ولكن معـدنُ الذّهب الرّغام
أرانبُ غيـــــــر أنّهــم ملوك   مفتّحـــــة عُيونُهـم نيـــام

(المتنبی، ۲۰۰۸م: ج۴، ۷۱)

إنّ المتنبّي يدخل في صراع مع وضع اجتماعيّ لايرى فيه سوى العبوديّة فينادي:

إلى أيّ حِينٍ أنت في زيّ مُحرِمٍ   وحتّى متى في شقوة و إلى كم
و إلاّ تمُت تحتَ السّيوف مُكَرّماً   تَمُت وتُقاس الذّلّ غيـرَ مكرّم

(المصدر نفسه: ج۴، ۱۳۷)

«نحن مع شعر المتنبّي نفاجأ دائماً، نهتزّ، نثور، ونعيد المعاملة معه... نحن مع شعره في حالة تأهّب ومجابهة ورفض... وأحياناً في حالة مجاهدة ومكابدة واستنكار واستجماع قويّ للوثوب...على عالمنا المهتري، و قِيمنا المشوهّة..."(طه حسين، ۱۹۸۸م: ج۳، ۳۷)

كلّ ما رأينا في شعر المتنبّي من آثار التّمرّد والسّخط، نراه عند الشّاعر المعاصر محمّد مهدي الجواهريّ.

إنّ التّمرّد سِمة كبرى في شعر الجواهري، فيصف الشّاعر هذه الخصيصة بقوله: «أنا أتمرّد حقّاً و أثورُ و أغضب، لكنّني أتمرّد بالكلمة، وأثورُ بالقصيدة، وأغضب بهذا الموقف أو ذاك...». (الجواهري، مذكّراتي، ۱۹۹۹م: ج۲، ۱۵۴) لعلّ من أبرز دوافع التمرّد والرّفض عنده هو القيود المفروضة عليه وعلى المجتمع الإنسانيّ عربيّاً أو غير عربيّ.

كان يواجه الجواهري الآفات والمصائب في مختلف المستويات؛ من المتديّنين الّذين لايعرفون من الدّين إلاّ اسمه، ومن القرآن إلاّ رسمه، والسّياسيّين الّذين جاءت بهم الدّبابات أو القوى الخفيّة لهذا الكوكب المسكين. كان يقف أمام جاهليّة وثنيّة تبني وتنحت أصنامها

بأيديها، ثمّ تعبدها. إنّه كان عالماً بما يحدث لهذا الشعب الّذي سحق الزّمان رؤوسه فترأست أذنابه سياسيّا، ودينيّاً وأدباً؛ (الحجاج، ١٩٩٧م: ٥٠) فغير بعيد منه أن ينادى:

في ذمّة الشّعـر ما ألقـى وأعظمه إنّي أغنّـي لأصنـام و أحجـار
...لو في يدي لحبستُ الغيثَ عن وطن مستسلم وقطعتُ السّلسلَ الجاري

(*الجواهرى*، الديوان، ١٩٨٠م: ج١، ٤٢٩)

إنّ معرفة الشاعر نفسَه مدخل لوَعي الآخرين؛ فهو يدعو النّاس إلى معرفة شرفهم والذود عنه والإقدام إلى رفض تضييعه بيد المستعبدين، وأصحاب السّلطان والثّروة. فعندما يرى النّاس خافضي رؤوسهم و واضعي أجنحتهم للأقوياء، يتمرّد عليهم كما يتمرّد ويسخط على الجائرين والظّلمة:

قالوا سكتّ وأنت أفظـعُ ملهب وعيَ الجمـــوع لزندها قـدّاح
...لكن وجدتُ سلاحَهم في عُطلة فرميتُ في قعر الجحيم سِلاحي

(المصدر نفسه: ج٣، ١٣٢)

من ميزات الجواهري أنّ شعره في مواجهة الظّلم والنّهب لايكون مختصّاً ببلده، بل يتعدّاه إلى الآخرين من العرب وغيرهم خارجَ حدود وطنه؛ فيدعوهم إلى دفع الظّلم ورفض الظّلمة. يقول مخاطبا "فلسطين" المحتلّة وشعبها المضطهد:

و بالمظالم رُدّي عنـكِ مظلمـة لا، فأحقرُ مَن في الكون مَن ظُلما

(المصدر *نفسه: ج١، ٤٧٤*)

و بما أنّ اجتناب الجور و محاربة المستكبرين من شيم الجواهري المتميّزة، فهو يجتاب كلّ أرض و يلتقي بكلّ مجتمع إنسانيّ، فيحضّ المظلوم بدفع الظّلم والنّضال ضد الظالم.

إنّه يصرّح بتمردّه ضدّ كلّ المعتدّين على حقوق الإنسان، ومن جملتهم آنذاك بعض أدعياء الدّين الّذين اتّخذوا الدّين وسيلة لتحقيق غاياتهم. فالشاعر لايقرّ ذلك فيرفض أعمالهم ونيّاتهم، ويصيح عليهم بصوت عالٍ:

و ما الدّينُ إلاّ آلة يشهــرونها إلى غرضٍ يقضونه وأداة

(المصدر *نفسه: ج١، ٤٦٨*)

ويلقي المسئوليّة على المصلحين بقوله:

و مِن عجبٍ أنّ الّذين تكفّلوا بإنقـاذ أهليــه هُم العثرات

(المصدر *نفسه: ٤٦٧*)

كما يندّد منعهم تعلّم البنات ويعتبره احتقاراً للرّجال أكثر من النّساء، فيقول:

إنّكم باحتقاركم النّساءَ اليو مَ أوسعتم الرّجالَ احتقارا

(المصدر *نفسه: ٤٦٣*)

إنّ التّمرّد على الدّين صورة من صور التمرّد على القيم الحاكمة على المجتمع، وإن كانت هذه القيم بالية منسوخة تكون سبب فتور المجتمع، ولاتنهض بحريّته وحقّه والدّفاع عن كرامته.

فالتمرّد أبان عن معظم مواقف هذين الشّاعرين، وذلك لشدّة إبائهما وتشامخهما الّذي أحال شخصيتهما إلى بَطلين أسطوريّين يمثّلان الإرادة العربيّة والشّموخ والقيم العربيّة، بل الإنسانيّة في عصر قَلّت فيه هذه السّجايا الأخلاقيّة.

ب) *الشّعور بالغربة*

إنّ الّذي يدرك كرامة ذاته و بالتّالي حريّته الإلهيّة، عندما يقيم في مجتمع يعدم هذا الإدرك ويغفل عن قيمته الإنسانيّة وشرف وجوده، يستغلّ المستبدّون غفلته فيستعبدونه، فيشعر هذا الإنسان بالغربة بين هذا الشّعب المهضوم الحق. وحينما يرى أغلال العبوديّة تكبّله يضيق بالوطن ذرعاً حتّى يستحيل وطنه سجناً يزجّ فيه من لا جريرةَ له إلاّ النّرفع وإظهار كرامته الإلهيّة؛ فلابدّ له أن يري نفسَه غريبا في وطنه. كما يقول بعض علماء النفس عن هذا النّوع من الغربة بأنّها: «شعور الفرد بأنّ المجتمع والسّلطة لايحسّان به ولاقيمة له في ذلك المجتمع.» (اليحيى، ٢٠٠٠م: ٢٧١) وبما أنّ الشّعراء يمتازون بين أفراد الشّعب بالأحاسيس الدقيقة والمشاعر

الظريفة ربّما يدركون هذا الأمر قبل الآخرين، فلايصبرون على سكوت الإنسان عنداستلاب كرامته وحريّته، فيصيحون بأعلى أصواتهم طالبي استردادِ هذه الموهوبة الإلهيّة. من هنا تنشأ الغربة ويقع التّصادم بين العالمين المتناقضين: عالم معلوم متكرّر عند كلّ الناس يتعودّون على الحياة فيه، وعالم آخر مجهول عند الناس أغلبهم غير متكرر؛ ولكنّ الشعراء يرونه بأعينهم البصيرة المحدقة بكلّ جماله وعظمته وبرائته: يصورّونه، ويحلمون به، ويدعون الآخرين إليه. ويتصدّر هؤلاء الشّعراء في العصر العبّاسى المتنبّي، و في العصر الحديث الجواهري. إنّهما شاعران لا كالشعراء: غريبان في الناس، غريبان بين الشعراء، وغريبان في عصرهما. إنّهما مابتليا بالغربة إلاّ لأجل الإنسان ومكانته الباسقة، فهما كما يقول أدونيس: «لاأحبّ الغربة، ولكن لايهمّني البيت العائليّ أو الوطن بحدّ ذاته، يهمّني الإنسان لا المكان.» (ديب، ٢٠٠٤م: ١٨٠)

إنّ المتنبّي كان كثير الاهتمام بحريّته وعزّته، يهرب من الأرض الّتي أصبحت سجنا له بعد تضييع حقّه فيها، يعكف عن أبناء وطنه الّذين يعرفون هذا الحق ولكنّهم لايدافعون عنه أمام الغاصبين؛ فلذا يشعر الشاعر غربة داخليّة، وإن عاش في وطنه، فينادي:

وهكذا كنتُ في أهلي وفى وَطني إنّ النّفيسَ غريب حيثمـــا كانا

(المتنبّى، ٢٠٠٨م: ج٤، ٢٢٢)

فالشّاعر يؤمن بكرامة نفسه و عزّتها، فيتحدّث عن نفاسة شخصيّته التي لايدركها الآخرون، و ربّما لايأنس بها الغافلون؛ فيشعر بالغربة أينما يتوجّه.

إنّ المتنبّي كان غريب الوجه بين الفرس، كما أعرب عن ذلك قائلا:

مغاني الشعب طيباً في المغاني بمنزلة الرّبيـــع من الزّمان

ولكنّ الفتى العربيّ فيهـا غريب الوجه واليد واللّسان

(المصدر نفسه: ج۴، ٢٥٤-٢٥٥)

وهذه الغربة لم تكن عجيبةً؛ ولكنّه كان غريب الرّوح والعقيدة بين أبناء وطنه، وهذا الشّعور بالغربة من آثار معرفته بكرامة ذاته، وجهل المجتمع لشخصيّته، وعقيدته وفكرته؛ فلذا نراه

يقول في زحلة أو نخلة أو نحلة ـ باختلاف الروايات ـ و هى قرية من قرى بعلبک في لبنان، يقول فيها:

ما مُقـامي بأرض نخـلة إلاّ كمُقام المسيـــح بين اليهود
...أنا في أمّـة تداركها اللـــــــ ـهُ غريبٌ كصـــالح في ثمود

(المصدر *نفسه: ج١، ٣٢٤و٣٢٨*)

ويخاطب نفسه مؤكّدا على هذه الغربة المُرّة:

أنتِ الغريبة في زمانٍ أهله وُلِدت مكارمُهم لغير تمام

(المصدر نفسه: ج٤، ١٠)

فمن أناشيد الكبرياء الّتي عبّر فيها الشاعر عن استحقاقه للعظمة وأبان عن شعوره بالشّرف الإنسانيّ قصيدة قالها بعد موت جدّته لأمّه:

لئن لذّ يومُ الشامتـين بيومِها فقد وَلدَت منّي لآنافِهم رَغمـا
تغرّبَ لا مستعظمـا ًغيرَ نفسه ولا قابلا ًإلاّ لخـالقِه حُكمـــا
و لا سالكا ًإلاّ فؤادَ عَجـاجة ولا واجدا ً إلاّ لمَكرُمة طعـما

(المصدر *نفسه: ١٠٨*)

فهو يقول: ولدت جدّتي منّي رجلاً تغرّب عن بلاده، لأنّه لايعتبر غيرَ نفسه عظيما، فأراد أن يغادر الّذين كانوا يتعظّمون عليه بغير استحقاق ولايقبل حكمَ أحد عليه إلاّ الّذي خلقه.

إنّ البحث عن غربة الجواهريّ متسع الجوانب لايحويه هذا الموجز؛ فغربته فكريّة باطنيّة؛ يعيش الشّاعر في بطن بلاده إلّا أنّه يشعر بغربة نافذة في صميم مشاعره وأفكاره، و هى تلك التي يصوّرها الشّاعر المعاصر أدونيس بقوله: «تبدو حياة الجواهرى الّذي عاش معظم حياته في الغربة كمثل شلاّل من الصّور البهيّة الفاجعة...» (ديب، ٢٠٠٤م:١٨٠) وقد صرّح الجواهري بهذه الغربة قائلا:

إنّا لنَخنق في الأضلاع غربتنا وإن تنـزّت على أحداقنا حُرقا

معذّبون وجنّاتُ النّعيـــــــم بنا وعاطِشون و نمري الجونة الغدقا

(الجواهري، ١٩٨٠م: ج٣، ٣٢٤)

فالشاعر يصوّر نفسه وهو في وطنه حيث الجنّات الحافلة بالنّعمات الوفيرة إلّا أنّه غريب لايشعر بلذّة من هذه النّعمات كلّها، وهو عطشان و ينابيع الماء بيده لايرتوي منها. و في بيت آخر يؤكّد على هذه المرارة بقوله:

أمَرّ من المِلح الأجاج مَواردي و أوجعُ من شوكِ القتادة زادي

(*المصدر نفسه: ج١، ٤٤٠*)

كان الجواهري وحيداً حينما كان يدافع عن المبادئ الإنسانيّة في مجتمع لايعترف بها:

خُذوا بيدَي هذا الغـريب فإنّه لكلّ يدٍ مُدّت إليـه مُعـــــادي

...ماذا يريدُ النّاسُ منّي وإنّمـــا لنفسي صَلاحي أو عَليّ فسادي

(المصدر *نفسه*: ٤٣٩ و ٤٤٠)

و في بيت آخر يبحث عن رفيق منصف يساعده في الدّفاع عن المبادي الإنسانيّه:

وحيداً يحامي عن مَبادىء جمّةٍ أ ما في البَرايا مُنصِف فيؤازرُه

(المصدر *نفسه*: ١٠٩)

هذا هو الّذي يقول كثيراً عن وطنه الّذي أصبح له سجنا، لا لشيء سوى طلبِه الرّفعة والكمال إلى ما هو مطلوب الحقّ تعالى، فيصرخ:

كان بلادُ الحرّ سجناً لمجرمٍ وما جرمُه إلاّ العلى والتّرفُع

(المصدر *نفسه*: ١١٢)

و هل البحث عن العلى والرّفعة إلاّ من آثار العزّة الوجوديّة؟ وليس من شيم العزيز الأبيّ أن يرضي بالمذلّة أو أن يبيت على الضّيم؛ فلابدّ أن يصبر عليه متكلّفاً، وهذا هو الغربة الداخلية؛أو هو مضطرّ بالخروج من وطنه والاستقرار بين الأجانب فيعاني من الغربة الخارجية. فعلى أيّ حال يعتبر الشّاعر نفسه سجينا مكبّلا بالأغلال لاحريّة له ولاعزّة. فهو يُؤثر الغربة بكلّ تبعاتها

الفرديّة والاجتماعيّة على البقاء في الوطن مغلولاً مسلوبَ الحريّة محفوفا بالذلّ والمهانة، فيقول منادياً عزّه:

واللهِ لو أوهَبُ الدّنيا بأجمعِها ما بعتُ عزّي بذلّ المترفِ البطر

(خيال الجواهرى، ٢٠٠٤م: ٣٧)

فلا مناص من الغربة إذا ما أحاط بالوطن الذّلّ والحقارة:

مَن لِنـاءٍ عاف أهلا وصحـــابا وديـارا

تخـذ الغـربة دارا إذ رأي الذلّ إســـارا

(نفسه/١٩٥)

قد غدت هذه البلاد مرتعا خصيبا للّئام وأهل الدّناءة، و عذابا جحيما لذوي الكرامة الذاتيّة و طالبي الحريّة والكمال.

ج) *الفخر بالنفس*

لاغرو أنّ شاعرا باسلا متكبّرا طموحا جسورا متمرّدا عملاقا يفخر بنفسه؛ فكلّ هذه الخصائص تتجلّي في المتنبّي والجواهري؛ إذن فكيف يُستغرَب منهما الفخر بالنّفس، مع أنّ الفخر مركّب في طباعهما رافقهما منذ صباهما حتى وافتهما المنيّة. هذا هو المتنبّي الذي ترتفع نفسُه إلى أعلى الدرجات في صباه فيقول:

أيَّ محـلّ أرتقـي أيَّ عظيـم أتّقـي؟

وكلّ مـا قد خلق الله ومـا لم يخـــلق

مُحتـقر في همـّتي كشَعـرة في مفـرقي

(المتنبى، ٢٠٠٨م: ج٢، ٣٤٧)

إن لم يتمتّع الإنسان بعزّة النّفس ولم يهتمّ بخلقته الشّريفة فلايمكن له أن ينادي بعلوّ الهمّة. إنّ الشّاعر يجعل نفسه في الثّريّا شرفا وخيرا فيقول:

ما أبعدَ العيبَ والنقصان مِن شرفي أنَا الثريّا وذان الشيبُ والهرم

(المصدر نفسه: ج٣، ٣٩٢)

كأنّ نفسه الكبيرة تأبى عليه أن يطري أحدا قبل أن يؤدّي لها حقّها من التّعظيم والإكرام. فهو يباهي بشجاعته وصبره وعفّته وإبائه:

الدّهرُ يعجب من حَملي نوائبَـه وصبرِ جسمي على أحداثِه الحُطُم

(المصدر نفسه: ١٦٥)

يغتنم أبو الطّيّب كلّ فرصة للمباهاة بنفسه، عندما يمدح أميرا يصدّر مدحته بأبيات يقول فيها مفتخرا:

وكيف لا يُحسَد امرؤٌ علَم له على كلّ هامـــةٍ قدم ؟

(المصدر نفسه: ٦١)

إنّ الشّاعر لايكتفي بالمفاخرة بنفسه ومكارمه فحسب، بل يظهر للمدوح قيمة شعره؛ فهو كالدّرّ لايغبن من يعطي عليه درّا:

لك الحمدُ في الدّرّ الّذي لي لفظُه فإنّك مُعطيـــه و إنّـــي ناظم

(المصدر نفسه: ج٣، ٤١٣)

كما يعرض للشّعراء فيرمي بهم إلى الأسفل ويحلّق فوقهم مغرّدا:

و دَع كلّ َصوت غيرَ صوتي فإنّني أنا الطّائرُ المحكيّ والآخرُ الصّدى

(المصدر نفسه: ج١، ٥٢)

و قد يجمع في الفخر بنفسه بين الشجاعة والحذاقة في الأدب:

فالخيلُ واللّيل والبيداءُ تعرفني والضّربُ والطّعن والقرطاسُ والقلم

(المصدر نفسه: ج٣، ٣٩٠)

و:

أنا تِربُ النّدى وربّ القوافي وسِمـامُ العدى وغَيـظُ الحسود

(نفسه ١/ ٣٢٨)

هكذا يدور فخر المتنبّي حول الشعور العارم بالتفوّق واللّاتشابه، وحول الإحساس بكرامة نفسه وشرف وجوده ممثّلا لكلّ إنسان يطلب الكمال والصّعود في مدارج الرقيّ حتّى الوصول إلى أعلى المكرمات الإنسانيّة.

أمّا الجواهري فليس أقلّ من صنوه في ذكر مفاخره والتباهي بمكارمه و مناقبه. فقد كان صريح اللّهجة في طلب حقه من الحريّة الذاتيّة وتعظيم نفسه النّفيسة، ولايخاف من أيّة قوّة إلاّ الله، فيتحدّي بقوّة السّلطة الحاكمة، متهيِّئا للموت في سبيل ذلك، ويقول مصرّحا:

أنا حتفُـهم ألجُ البيوت َعليهم ... أغري الوليد َبشتمهم والحاجبا
أنا ذا أمامَك ماثلا ًمتجبّــــــــراً ... أطأ الطّغــــاةَ بشسع ِ نعلي عازبا

(الجواهری، الديوان، ۱۹۸۰م: ج۱، ۲۷۰)

هذه الجسارة في النّضال على المتجبّرين لاتكون إلاّ من اهتمام الشّاعر بذاته واتّكاله على الكرامة المودّعة الإلهيّة عنده. فحقّ له أن يباهي بنفسه ويظهر وجوده وعظمته في العالم الإنسانيّ.

إذا غضب الجواهريّ على الأراذل والجائرين يستحيل إلى غضب يمحق السّلطة؛ كما يصبح أحيانا نارا مشتعلة تشوي وجوهَهم:

صببتُ على العتـــاة شواظَ نار ... تعـود ُبها الصّفاة إلى احتراق
و نفَّضتُ السّواد على وجـــوه ... مصبّغـــــــــــــــة اللّحى بدمٍ مُراق

(المصدر *نفسه: ج۵، ۲۷۴*)

فخر الجواهري لاينحصر بمواقفه السّياسيّة والاجتماعيّة فحسب، بل هو يعتزّ بشاعريّته وأنّه بين الشعراء مرجوّ بنصرة الحقّ ومكافحة المعتدين، فلذا يقول:

وهل أنا إلاّ شاعرٌ يرتجــُونه ... لنصرةِ حقّ أو للطمة ِمُعتدي

(المصدر *نفسه: ج۲، ۱۵*)

د) النّدامة وعتاب النّفس

لاغرو أنّ الّذي يدّعي العزّة والكرامة يسمع نداء ضميره عندما يرتكب الأخطاءً، فيخجل ويندم من عثراته، ثمّ يعزم على تدارك الأخطاء الماضية بأحسن ممّا سبق. فالشاعران المتنبّي والجواهري لايستثنيان من هذا الحكم، لقد وقعا أحيانا في زلاّت لايقرّان عليها، بل يرجعان لتداركها بأجمل ما يمكن.

فلذا نرى الشّاعر العبّاسيّ المتنبّي يتغنّي بالنّدم الذّي يحرق قلبه بعد ما غضب عليه "بدر بن عمّار" حاكم طبريّة الّذي وجد الشّاعر عنده الحياة اللّيّنة الهادئة والبيئة المثقّفة النّاقدة، فبلغ الرقيّ، ففرّ أبو الطّيّب منه ووقع في محنة أوذيَ بها فيقول:

لا افتخار إلاّ لمن لايُضـــام   مُدرک أو مُحـارب لاينـام

ليس عزماً ما مرّض المرءُ فيـه   ليس همّـــاً ما عاق عنه الظّلام

و احتمالُ الأذى ورؤية جانيـ   ـه غذاءٌ تضوَى به الأجسـام

(طه حسين، ۱۹۸۸م: ج۳، ۱۳۵)

و في أوّل قصيدة نظمها المتنبّي في مدح كافور سنة ۳۴۲هـ.ق. كان يفكّر بسيف الدولة بعد مفارفته، موجّها اللّومَ إلى نفسه فيقول:

حببتک قلبي قبلَ حبّک مَن نأى   وقد كان غدّارا ًفكُن أنت وافيا

و أعلم أنّ البيـــــــــنَ يشكيـک بعده   فلست َفوادي إن رأيتُک شاكيا

(المتنبى، ۲۰۰۸م: ج۴، ۲۸۷و۲۸۸)

كما أظهر ندامته في الميميّة التي مدح فيها كافورا سنة ۳۴۷هـ.ق. فهذه القصيدة تصوّر حاله النفسيّة بعد خيبته عن ما وعده كافور ومماطلة كافور فيما وعده وتذكّر عهد سيف الدّولة:

فراق ومَن فارقتُ غيرُ مذمّم   وأمّ ومَن يمّمت ُخيرُ ميمّم

(المصدر *نفسه: ۱۲۵*)

و أمّا الشّاعر المعاصر الجواهريّ فقد شعر بالنّدامة وقام بملامة نفسه عندما قال قصيدة "التّتويج" في مدح "فيصل الثاني". ولقد عبّر الشاعر عن هذا الموقف المخجل بقوله: «لقد اغتصبت في تلک الزّلّةُ ضميري وما أصعب أن يجد المرء ذو الحسّاسيّة ضميره مغتصبا ... وما أصعب أيضا أن يجد المرء ذاته على نقيض قيمه ومبادئه ... ». (الجواهري، مذكّراتي، ١٩٩٩م: ج٢، ١٢١) و بعد فترة قصيرة من نظم القصيدة السابقة قال قصيدته "كفّارة وندم" ندامة مما مضى و رجوعا إلى الانسجام مع نفسه وضميره. فمن أبيات هذه القصيدة:

حنانيک نفسي لايَضِق منـک جانبٌ   إذا ضاق مِن رحبِ النّفوس جناب

...وما لک مِن عتب على الدّهـر إنّما   عليک لمـــــا هوّنت منــه عتاب

(الجواهری، الديوان، ١٩٨٠م: ج۴، ١٨٠)

الدّفاع عن الكرامة الذّاتية أو التّعالي الكاذب؟

يتصوّر بعض المعاندين أنّ المتنبّي قد يعتزّ بنفسه إلى درجة الرّبوبيّة ولاسيّما في أبياته التنبّؤية حيثما يقول:

ما مُقامي بأرض نخلة إلاّ   كمُقـام المسيح بينَ اليهود

أنا في أمّةٍ تدارَكها اللّـــــــ   ـــــــهُ غريبٌ كصالحٍ في ثمود

(المتنبي، ٢٠٠٨م: ج١، ٣٢۴)

ربّما نشأ هذا الأمر من قول بعض المنتقدين الّذين عابوا عليه ادّعاء النّبوّة في مثل هذين البيتين، ولاسيّما صديقه ابن جنّى الّذي قال عنه بأنّه: «سمّي المتنبّي لأنّه قارن نفسه في بيتين من الشّعر بالمسيح بين اليهود و بصالح في ثمود» (أبو الطيّب: ٨٠)، ولكنّ الشّاعر ينكر هذا الأدّعاء، كما ورد في رسالة الغفران: أنّ أباالطيّب سُئل عن حقيقة هذا اللّقب، فقال: «هو من النّبوة أي المرتفع من الأرض.» و من أقواله في تعليل لقبه:" «أنا أوّل من تنبّأ بالشّعر» (المصدر *نفسه: ٨١*) فضلاً عن ذلک لم يحتو ديوان الشّاعر على أيّ تلميح إلى ادّعاء نبوّته.

فالمتنبّي هو الّذي لايخضع إلاّ أمام الله وما يأمر به، وهذا الأمر هو خصيصة للشّاعر لاعتزازه وإكرام نفسه دون الّذين يخفضون أجنحتهم لكلّ وضيع ولئيم:

تغرّبَ لا مستعظماً غيرَ نفسه ولا قابلاً إلاّ لخالقه حُكمـا

(المصدر *نفسه: ١٠٨*)

فهو يفخر أيّ فَخر بأنّ حياته رهينة لإشارات خالقه.

وأمّا بالنسبة للجواهري فالبعض يظنّ أنّ موقفه من الشّعب موقف استكبار أو تعالٍ قد سمّاه البعض غرورا أو تعالياً. (الخير، ٢٠٠٧م: ١٨) و هذا التّصوّر الخاطي قد نشأ من قوله:

أقول لنفسي إذا ضمّـــها وأترابهـــا محفـــلٌ يُزدهى
تسامى فإنّك خيـــــرُ النّفوس إذا قيس كلّ على ما انطوى
تسامى فإنّ جنـــاحَـيك لا يقـــرّانِ إلاّ على مُرتقى

(الجواهرى، الديوان، ١٩٨٠م: ج٣، ٢٠٦)

فالشاعران في مثل هذه الأبيات لم يتطلّعا إلى الاستعلاء على الناس، أيّ: العلوّ الكاذب؛ بل يؤكّدان على الاهتمام بكرامة النّفس وقيمة الوجود، الاهتمام بتلك الميزة الإنسانية التي غفل عنها أبناء وطنهم.

إنّهما يبحثان عن علوّ النّفس ويؤمنان بأنّ الّذي يجتهد للوصول إلى الكمالات الإنسانيّة التي فطره الله عليها، لا يَحِقّ له أن يستقرّ في الأسفل بين الّذين لايفهمون شيئا من العزّة والشّرف؛ بل مستقرّه القمم العالية فوق الحياة التّرابية. ألايقول المتنبّي عنه في شعره:

إذا غامرتَ في شرفٍ تروُم فلاتقنَـع بما دونَ النّجوم

(المتنبى، ٢٠٠٨م: ج٤، ١١٩)

هل هذا هو الغرور والتّعالي الكاذب كما يفسّره البعض؟ أو العناية بعزّة النّفس الإنسانيّة؟ فالمتنبّي في البيت السّابق لايريد تشبيه نفسه بالنبيّ عيسي المسيح (ع) بجامع النبوّة، بل يعبّر عن الأصالة الإنسانيّة عند كلّ إنسان فهيم بالقيم الإنسانيّة، محارب ضدّ الجور والاستعباد،

عامل برسالته الإلهيّة أي عدم الخضوع والاستسلام أمام كلّ مضيّع لحقوق الإنسان غير مبال بكرامته وشرفه.

والجواهريّ الّذي كان متهّما بالتعالي والتكبّر، يعترف أيضا بهذه الكرامة في كثير من أشعاره؛ منها:

و إنّي... والمذلّة مِن عُداتي يَهونُ لِعزّة، أنّي ذللتُ

(الجواهرى، ١٩٨٠م: ج٦، ١٠٣)

فما أبعدَ المذلّة والهوانَ من نفس الشّاعرين الكريمة، وما أشدّ ازدجارَهما من هذا الأمر الذّي يعدّانه خصما ألدّ لكلّ إنسان شريف.

النتيجة

إنّ الشعور بالعزة والكرامة فطريٌّ متأصّلٌ في النفس البشرية، لايمكن استثناء أحد منه. فقد اعتنى به كثير من الشّعراء في نتاجاتهم الأدبية على مرّ العصور إلّاأ أنّ ما يميّز المتنبّى والجواهريّ في معالجتهما لهذا الموضوع أنّهما أشادا به كثيرا في أشعارهما وسبكاه في أحسن صور و أروع تشابيه.

فهناك قواسم مشتركة عديدة بين الشّاعرين في حياتهما الفرديّة والاجتماعيّة أدّت إلى اقتراب الرّؤية عندهما بالنّسبة للكرامة الإنسانيّة، كأنّ الجواهريّ يحمل روح المتنبّي في العصر الرّاهن. فالرؤية الموحّدة للشّاعرين بشأن العزّةالإنسانيّة انتهت إلى نتائج وجدانيّة متماثلة؛ أهمّها:

- سمة التّحدّى والتّمرّد
- الشّعور بالغربة (داخليّة وخارجيّة)
- الفخر بالنّفس
- النّدامة وعتاب النّفس

كلّ هذه الميزات منبعثة من العناية الوافرة والعميقة بالعزّة والشّرف الإنساني؛ إذ إنّ كلاّ من الشّاعرين ينتمي إلى مجتمع يغفل عن هذه الكرامة ويخضع للظالم وظلمه، فتمرّدا على الظالم والمظلوم كليهما. والإحساس العميق بالكرامة في هذا المجتمع وبين أبنائه كان سببا للشّعور بالغربة الدّاخليّة عند الشاعرين، كما أنّ بعض العوامل أدّت إلى رحيلهما عن الوطن فأحسّا بالغربة الخارجيّة. ولم يكن تباهيهما إلاّ بالنّفس النّفيسة المتعالية بالشّرف الإنسانيّ. وأخيرا فإن ملامة النّفس عندهما انبعثت من معرفة النّفس التي هي أساس معرفة الله، كما عبّر عن ذلك أمير المؤمنين علي(ع) بقوله: «من عرف نفسه فقد عرف ربّه.» (علي بن أبي طالب، ٢٠٠٥م: ٥٤٨)

وبعد هذا كلّه فلاغرو أن نرى الشّاعرين ينشدان بلسان واحد، ويجتازان مسلكا واحدا، رغم الفاصل الزّمانيّ الذّي يربو على ألف عام؛ وهما مفخرة للأدب العربي، بل للأدب الإنسانيّ.

المصادر والمراجع

الكتب:

القرآن الكريم

البستاني، بطرس، **أدباء العرب/٢**، دار نظير عبود، بيروت، ١٩٨٩م.

بلاشير، ريجيس، **أبو الطيّب المتنبّي**، ترجمة: الدّكتور إبراهيم الكيلاني، من منشورات إتّحاد الكتّاب العرب، دمشق، ٢٠٠١م.

الجواهري، محمّد مهدي، **ديوان١-٧**، جمع وتحقيق: الدّكتور إبراهيم السّامرائي، الدّكتور علي جواد الطّاهر، الدّكتور مهدي المخزومي ورشيد بكتاش، دار الرّشيد للنّشر، الجمهوريّة العراقيّة، ١٩٨٠م.

الجواهري، محمّد مهدي، **مذكّراتي ١-٢**، الطّبعة الأولى، دار المنتظر، بيروت- لبنان، ١٩٩٩م.

الجواهري، خيال، **الجواهري... مسيرة قرن**، منشورات وزارة الثّقافة، دمشق، ٢٠٠٤م.

الجواهري، خيال، **الجواهري وسيمفونية الرّحيل**، من منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السّورية، دمشق، ١٩٩٩م.

حسين، طه، **من تاريخ الأدب العربي/٣**، الطّبعة الرّابعة،، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٨م.

الخيّر، هاني، **الجواهري شاعر الكلاسيكيّة الفخمة**، الطّبعة الأولى، دار ومؤسّسة رسلان،سوريا- دمشق، ۲۰۰۷م.

ديب، على حسن، **الجواهري: رحلة الشعر والحياة**، مؤسّسة المنارة، دمشق، ۱۴۲۵هـ. ۲۰۰۴م.

زين الدّين، ثائر، **أبو الطّيّب المتنبّي في الشعر العربيّ المعاصر**، من منشورات إتّحاد الكتّاب العرب، دمشق، ۱۹۹۹م.

شعبان، عبدالحسين، **الجواهري: جدل الشعر والحياة**، الطّبعة الأولى، دار الكنوز الأدبيّة، بيروت، ۱۹۹۷م.

عليّ ابن أبي طالب، **نهج البلاغة**، شرح محمّد عبده، الطّبعة التّاسعة، دار البلاغة، بيروت ، ۱۴۲۵هـ.۲۰۰۵م.

المتنبّي، أبو الطّيّب، **ديوان۱-۴(المسمّى بالتبيان في شرح الدّيوان)**، شرح أبي البقاء العكبري و تصحيح الدّكتور كمال طالب، الطّبعة الثانية، دار الكتب العلميّة، بيروت، ۲۰۰۸م.

اليحيى، فرحان، **أزمة المواطنة في شعر الجواهري**، من منشورات اتّحاد الكتب العرب، دمشق، ۱۴۲۱هـ. ۲۰۰۰م.

المقالة:

۱ – الحجاج، ناصر، **الجواهري.. الطامح العظيم**، مجلّة القصب(مجلّة دوريّة ثقافيّة أدبيّة)، العدد الحادي عشر، السّنة الثالثة، بيروت، خريف ۱۴۱۸هـ. ۱۹۹۷م